# جهود المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في تاريخ الأدب العربي (1883 – 1951م)

*م.د.فارس عزيز المدرس

تأريخ التقديم: 2012/9/2 تأريخ القبول: 2012/10/3

قبل الحديث عن جهود المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي من المفيد التنبيه إلى أن المعنيَّ بالأدب في عموم الثقافة الأوربية ومجملُ النشاطاتِ الذهنية والفيلولوجية والحضارية والتاريخية؛ التي تتمخض عنها الحياة الثقافية لأي أمة؛ لذلك فعند حديثنا عن جهود كراتشكوفسكي فإننا نعني جهوده في مجال الأدب واللغة والتحقيق والتراجم؛ وما يتعلق بها من موضوعات.

وقبل الحديث أيضا نحتاج إلى إلقاء نظرة عن تطور حركة الاتصال الروسي بالعالم الإسلامي؛ فهذا يمهِّد لنا فهمَ الظروف التي اكتنفت تطور نشاطات المستعربين الروس؛ لأن أي نشاط ذهني يأتي بتأثير من محيطه الذي ولد فيه، ومن الثقافة التي استقى منها تصوراته ومواقفه ولابد. وفضلا عن ذلك فان الدراسات الاستشراقية تحتاج إلى معرفة تاريخية كي يجري تصنيف المستشرقين على وفق مشاربهم وتوجهاتهم ومقاصدهم.

**لمحة تاريخية في تطور الاستشراق الروسي:**

كان المسلمون في سالف عهدِهم يميزون بين الأقوام الأوربية تاريخيا وجغرافيا؛ فاحتفظوا بصورة عن الغرب تمثَّلت بـ مصطلح (الفرنجة) الذي استعملوه

* قسم اللغة العربية / كلية الآداب/ جامعة الموصل.

بمستويين، الأول عام يشمل سكان أوربا خارج الدولة البيزنطية ، والثاني خاص يشمل شمال الأندلس، أي فرنسا مواطن الفرنجة الأصلي. وعندما غزا الفرنجة بلاد الشام لم يكن من الصعب تمييزهم عن الأقوام الأوربية مثل الروم والصقالبة والبلغار، لأن عملية التمايز بين الأقوام جغرافيا ظاهرةٌ كانت موجودة في المصادر العربية – الإسلامية[1]. لكن التسمية توسعت في العصور المتأخرة لتشمل على الغالب شعوب أوربا بأسرها؛ ففقدت التسمية حاسة التمييز.

استخدم كراتشكوفسكي مصطلح (الإفرنج) في حديثه عن أوروبا الغربية[2]؛ منوِّها إلى أن الاستشراق الروسي لا يحتسب على الفرنجة أو على إرث أوربا الغربية، لكن ما علُق في ذهن قسم من الناس بعدُ – وخصوصا في مرحلة الاستعمار – أن الأوربيين طبقة واحدة؛ لذلك ينبغي التمييز بين الأوربيين تاريخيا؛ فهذا يسهم في تشكيل صورتهم تشكيلا منظما؛ يعتمد على معطيات تاريخية؛ تمنع وقوع الخلط بين مدرسةِ استشراق وأخرى، وتحدُّ من غبن قسم من توجهات المستشرقين الذين يختلفون في الثقافة والقصد عن مستشرقين لديهم دوافع ارتبطت بأهداف سياسية وعسكرية ولاهوتية.

وبتأثير من ذاك الخلط – فضلا عن التغييب والتجاهل العربي له – عانى الاستشراق الروسي من قلة العنايةِ به في عالم الغرب؛ مع أن ما أنتجه كان خطيرا وواسعا؛ وأثر على الاستشراق الأوربي الغربي ذاته؛ من خلال إطلاع الغربيين على ذلك النتاج، أو من خلال هجرةِ قسم من المستشرقين الروس إلى أوربا الغربية.

(1) المعجم التاريخي للبلدان والدول، الخوند، مسعود ط1، (ألكلس، مؤسسة الخدمات الطباعية، 1985)، 323.

(2) إضاءات على الاستشراق الروسي، فاطمة عبد الفتاح، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2000)، صـ 20.

يمتازُ الاستشراقُ الروسيُّ بسماتٍ تميِّزه عن الاستشراق الأوربي بعامة؛ نظراً لأسبابٍ تتعلق بالطبيعةِ السياسية التي رافقتْ نشوئِه، ثم بالمنحى الأيدلوجي الذي انتحاه التوجه السوفيتية في وقتٍ لاحق؛ خصوصا في بوادرِ نشوئه؛ حيث كانت النزعة الأممية تنظر إلى الشرق نظرةً تختلف عن نظرة الأوربيين الغربيين، ولم يكن استشراقا انتقائياً في تعامله مع التراث العربي – الإسلامي؛ يوظفه في خدمة أهداف استعمارية؛ كما كان لدى كثير من مظاهر الاستشراقُ الأوروبي الغربي[1] في تعامله مع التراث الشرقي في الفترة نفسها.

وبخلافِ ذلك وقبلهِ كان الشرق الإسلامي تحت حكم الدولة العثمانية؛ لا دويلات شبه مفتته، وكانت الصلاتُ بين العثمانيين وبين روسيا بين مدٍّ وجزر؛ لكنها لم تكن كصلةِ الدولة العثمانية بفرنسا وبريطانية؛ اللتين حكمهما النزوعُ الاستعماري فأوصلهما أحيانا إلى مستوى العداء المحمَّلِ بإرثِ الحروب الصليبية؛ التي أسهمتْ فيها كلتا الدولتين.

**تطور عناية الروس بالتراث العربي – الإسلامي:**

في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي اتحد عدد من إمارات العالم السلافي، وكونوا دولةً أطلق عليها اسم "روسيا الكييفية"؛ نسبة إلى مدينة "كييف". وبعد قرن بدأت هذه الدولة تبحث لنفسها عن دين من بين الديانات السماوية التي اعتنقتها جل الشعوب المجاورة؛ فطلب أميرُها فلاديمير من ملوك عدد من البلدان أن يبعثوا إليه برسل يحدثونه عن دينهم؛ كي يتمكن من اختيار أحد هذه الأديان؛ فيتخذه دينا رسميا للبلاد؛ بغية توحيدها وتعزيز شرعية الحكم فيها. إلا أن الروسيين والسلافيين لم يكونوا يجهلون أهم تعاليم تلك الديانات إذ كانوا على اتصال مع

(1) المخطوطات العربية، كراتشكوفسكي، ترجمة محمود منير مرسي، (القاهرة، دار النهضة العربية، 1969)، 216.

الخزر اليهود، كما كانوا مطلعين على الدين المسيحي الأرثوذوكسي في بيزنطة. أما الدين الإسلامي فقد عرفوا شيئا من تعاليمه من خلال البلغار المسلمين الذين قطنون ضفاف نهر الفولكا؛ موطن أحفادهم التتار؛ والمعروف الآن باسم "جمهورية تتارستان [1].

اختار "فلاديمير"، الدين المسيحي في شكله الأرثوذوكسي البيزنطي، وقد يكون اعتنق الإسلام؛ ثم ارتد عنه إلى المسيحية؛ كما جاء في إحدى المخطوطات الروسية[2]. " وإذا كان العارفون بالتراث الروسي يعلمون بأن القرن التاسع عشر عصر تجلَّى فيه تأثير القرآن الكريم والمؤلفات الأدبية العربية؛ فإن الفترات السابقة تبقى مجهولة إلى حد بعيد" [3]؛ غير أن هذه المرحلة امتدت من القرن التاسع الميلادي إلى القرن التاسع عشر [4].

ولفهم جوهر التصور العام للإسلام السائد عند الروس آنذاك، ولا بد من التذكير بأن هناك مصدرا مدونا كانوا يستقون منه معلوماتهم عبر المراجع البيزنطية، ومعلوم أن ما كان يكتبه البيزنطيون، لم يكن ليعطي صورةً حقيقية عن المسلمين؛ فتكوَّنت لدى الروس صورةٌ خيالية عن الإسلام؛ لا علاقة لها بالواقع[5].

شهدت روسيا في القرن الثامن عشر تحولاتٍ على يد القيصر بطرس الأول 1672 – 1725 الذي أصبحت البلاد في عهده تحتل مكانة مرموقة على الساحة

(1) ينظر: القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الروسية، مجلة التاريخ العربي، الرباط، 5131/1.

(2) مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مكارم الغماري، سلسلة المعرفة، عدد 155، الكويت، 1991، 311.

(3) م. ن، 31 – 32.

(4) الدراسات العربية في روسيا، عبد الرحيم العطاوي مصدر سابق.

(5) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، منشورات أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، موسكو / لينكراد، 1950، ص. 20. (بالروسية)

الدولية، وأبرز ما قام به سعيُه إلى تغيير مظاهر الحياة اليومية التي طغى عليها الطابع الشرقي؛ وذلك بمحاولته تقليد نمط أوربا الغربية؛ لكنه بانحيازه إلى الغرب، لم يهمل الشرق[1].

إن اهتمام "بطرس الأول" بالشرق وبالإسلام نبع أيضا من رغبته في معرفة خصمه المتمثل بالدولة العثمانية؛ فلا غرابة أن يعود تاريخ المحاولات الأولى للدراسات الاستشراقية الروسية إلى عهد حكمه[2]؛ هذا فضلا عن وجود أقاليم خاضعة لسلطته تدين بالإسلام، ولا عجب إذن أن تكون أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية قد تحققت في عهده، وهي الترجمة التي أنجزها "بوسنيكوف" عام 1716– 1647 "[3].

كان الكاتب المعروف أ. كانتيمير 1673 – 1723 قد أطلق مبادرته في تأسيس أول مطبعة بالحرف العربي، وهذا يعني – على وفق الوثائق الروسية - أن أول مطبعة للحرف العربي تأسست في روسيا، وليس في بيروت أو حلب كما هو شائع[4].

وهناك رأي أخر مفاده أن الربع الأخير من القرن الثامن عشر – وهو عهد الإمبراطورة كاتيرينا الثانية – شهد انفتاحا على مسلمي روسيا فألغت الكثير من القرارات في حقهم؛ فتم في عام 1778 إدخال الحرف العربي في الطباعة، وفي السنة نفسها طبع في العاصمة سان بطرسبورغ المصحف الكريم بحروف عربية[5].

---

(1) القرآن الكريم وترجمة معانيه، مصدر سابق، 5143/1.

(2) ينظر الدراسات العربية في روسيا، 1/ 67 – 73.

(3) القرآن الكريم وترجمة معانيه، مصدر سابق. (5146/1).

(4) م. ن. . 5146/1.

(5) نفض غبار النسيان عن بعض أمجاد تتارستان"، عبد الرحيم العطاوي التاريخ العربي، عدد2، ربيع 1417، 44.

ويقول "كراتشكوفسكي: إن هذه الحروف انتقلت فيما بعد إلى مدينة قازان التتارية، ثم إلى القرم فتركيا فمصر فالهند[1].

وصفوة القول: أستند الاستشراق الروسي في بداية تكوينه؛ على مصادر غربية؛ لكنه ما لبث أن تجاوزها، على اعتبار أن فهم الشرق يتم من داخله وليس من خارجه. وكانت البداية من خلال التبادل الثقافي في السفارات والقنصليات المدنية والعسكرية، ثم المعايشة المباشرة للموظفين العسكريين الروس في مناطق إسلامية في البحر الأسود والقوقاز وآسيا الوسطى[2].

ومهما يكن الحال فإن بداية العناية الروسية بالشرق لم تكن جهدا منظما مستمرا؛ حتى نشأت حركة الاستشراق الحديث؛ والتي بدأت بالمرسوم الجامعي لعام 1804[3].

أما عن البداية الحديثة للاستشراق الروسي – الذي يسميه كراتشكوفسكي استعرابا – فليس أفضل في الحديث فيه من كلامه هو؛ إذ يقول: إن العصر الجديد في تاريخ الاستعراب الروسي، يبدأ بالمرسوم الجامعي عام ١٨٠٤، لأن هذا المرسوم أدخل تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدارس العليا، وأسس الأقسام الخاصة لهذه اللغات؛ في وقت كانت المكانة الأولى للغات الشرقية والسامية في أوربا الغربية للعبرية، أما في روسيا، فاللغات الشرقية – بمفهوم الروس – كانت لغات الشرق

(1) دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، كراتشكوفسكي، أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، لينكراد، 1950، 58.

(2) كراتشكوفسكي والشرق الإسلامي، محمد سليمان حسن، التراث العربي. دمشق عدد 91. السنة الثالثة والعشرون. أيلول 2003. 64.

(3) م. ن. . 12.

الإسلامي وليست العبرية، وشغلت العربية المكانة الأولى، وقد أنشأ قسمٌ للغة العربية في جامعة خاركوف بعد صدور المرسوم في عام ١٨٠٤ مباشرة[1].

ونرجح أن رأي كرتشكوفسكي في هذا الأمر أتى رغبة منه في النأْي بالاستشراق الروسي عن حمولات الجهد الاستشراقي الأوربي وتطرفه؛ فهو كان يستشعر – من خلال اختلاطه وتعامله مع المجتمعات العربية واطلاعه على كتاباتهم وبحوثهم آنذاك – النفرة من مستشرقي أوربا الغربية. وللسبب ذاته نفهم أنه اختار تسمية الاستشراق الروسي بالاستعراب، لا بسبب اقتصار تدريس اللغات الشرقية في روسيا على العربية واللغات الإسلامية فحسب.

**عناية الروس بالقرآن الكريم:**

كان لـ كرتشكوفسكي جهودٌ قيمة في ترجمة معاني القرآن الكريم لذلك من المفيد تسليط الضوء على تاريخ تلك الترجمات؛ هذا فضلا عن كون ترجمة القرآن الكريم تشكل تعبيرا عن النشاط الاستشراقي الروسي. لان القرآن الكريم هو المعْلمُ الأول في تاريخ العرب وثقافتهم وحضارتهم وسر قوتهم وحضورهم على مستويات شتى. لذلك احتاج الأمر فهمه ومعرفته معرفة ناجزة؛ وهذا استدعى معرفةً بلغة العرب وآدابها؛ لذلك جرت العناية المبكرة بترجمته وبإنشاء معاهد تدريس لغته.

وعن الدور الذي مثلته ترجمات المصحف الكريم اللغة الروسية يذكر الباحث "غريزنييفتش: ""أنها مارست – على الرغم مما أصابها من نقص – دوراً إيجابيا بإتاحتها الفرصة أمام القارئ الروسي. . . إذ مع بداية القرن العشرين، لم تعد التراجم القديمة تتجاوب ومتطلبات العصر؛ لذا بدأ التفكير في إنجاز عمل يكون في مستوى طموحات المدرسة الاستشراقية الروسية الجديدة؛ فقام العالم

(1) م. ن.، 12.

"كريمسكي[1] " KRYMSKI (1871 – 1942) بإصدار ترجمة لعدد من السور مصحوبةً بالشروح؛ في سلسلته المشهورة "محاضرات حول القرآن" (1902)؛ غير أن تلك المحاولة توقفت؛ فأخذ كراتشكوفسكي على عاتقه هذه المهمة التي تطلبت منه وقتا وجهدا. ويمكن القول بأن اهتمام "كراتشكوفسكي بهذا الموضوع ظهر مع بداية خطواته الأولى في عالم الاستشراق، ولم ينصرف عنه طوال حياته؛ غير أنه لم يتمكن من رؤية عمله مطبوعا، إذ توفي ولم تصدر ترجمته إلا سنة 1963[2].

في العامين 1915 و 1916 ألقى كراتشكوفسكي أول محاضراته عن القرآن في كلية اللغات الشرقية بجامعة "بطرسبورغ"، وفي العام 1917 قدم وصفا لمجموعة مخطوطات المصحف التي تلقاها " المتحف الآسيوي" [3].

ويرى البعض أن ترجمة كراتشكوفسكي هذه بعيدة عن مضمون القرآن الكريم، وفي هذا مبالغة تدحضها الرؤية المتأنية؛ لأن كراتشكوفسكي: " ليس سوى مستشرق؛ إلا أن نزاهته وعلمه في مجال الثقافة العربية الإسلامية وتعاطفه معها، أمورٌ يعلمها مَن كان لديه اهتمامات بموضوع الدراسات الاستشراقية العالمية ". ويكفي الرجوعُ إلى إنتاج المجامع العلمية العربية ودورياتها في النصف الأول من لقرن العشرين ليرى إسهاماته فيها.

وبحسب ما يرى النقاد تتميز ترجمة كراتشكوفسكي عن الترجمات الأخرى، روسية كانت أم غيرها، بجوانب عدة؛ يمكن تلخيصها في النقط الآتية[4]:

(1) أنظر: الدراسات العربية في روسيا، كراتشكوفسكي نموذجا، عبد الرحيم العطاوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، في جزئين، ج1، 51 – 81.

(2) القرآن الكريم وترجمة معانيه، مصدر سابق، 5146/1.

(3) م. ن. 5146/1.

(4) م. ن. 5168/1.

1 – جاءت ترجمته نتيجة منهجية اعتمد فيها على فهم مضمون القرآن الكريم؛ انطلاقا من الدراسات اللغوية والأدبية التي قام بها شخصيا في فترات متباعدة من حياته. وكان تعامله مع النص القرآني بصفته وثيقة لغوية قديمة يرجع تاريخها إلى فترة معينة. لذا وجب – في نظره – إرجاعها إلى حقبتها الزمنية، ومحاولة فهم أحداثها؛ انطلاقا من تاريخ المنطقة في تلك الفترة، كما يجب النظر في تركيبة الجمل وتصريف الكلمات وفهم معانيها وشواردها انطلاقا من مقارنة لغة القرآن الكريم مع مجموعات الحديث من جهة؛ ومع نصوص الشعر العربي القديم في وسط الجزيرة العربية وشرقها من جهة أخرى[1]. وفي هذا الصدد يقول كراتشكوفسكي" (أخذنا عاماً كاملاً ندرس باجتهاد القصائد البدوية الأصيلة؛ التي تعكس بوضوح حياة [ أوضاع ] الخلافة في القرن السابع والثامن الميلادي؛ وتعرِّف أيضا بتقاليد الجاهلية برمتها)[2]. وكراتشكوفسكي في هذا يتفاعل مع تاريخانية النص التي تعكس الحياة التي عايشها والأحداث التي انبثقت عنها؛ تماما مثلما تعكس الأحداث أثرها على طبيعة النص.

2 – حاول كراتشكوفسكي الابتعاد جهد المستطاع عن أسلوب اللغة السلافية القديمة ومفرداتها التي تشكل أساس الترجمات الروسية للإنجيل، لأن تلك اللغة هي اللغة الرسمية للكنيسة الروسية، والغاية من هذا جعل القارئ الروسي يشعر بأن ما يقرأه يشكِّل نوعا من الكتابات المتداولة.

واعتماد كرتشكوفسكي على فكرة التداولية تعني خلو نيته من هدف لاهوتي أو سياسي؛ لذا نراه استهدف فهم القارئ بأمانة وتجرد. هذا فضلا عن محالة تجنب

(1) ينظر المقدمة التي كتبها كل من "غريزنييفيتش" (GRIEZNIEVITCH) و "بيلياييف" (BIELYYAYEV) لترجمة كراتشكوفسكي، ط2 (موسكو، دار النشر "تاووكا"، 1990)، 9 – 11.

(2) مع المخطوطات، مصدر سابق. 216.

التشابه اللغوي الروسي القديم بتراجم الله العهدين القديم والجديد. وهذا على الحقيقة ذكاء ونباهة تستحق العناية.

3 – إن كراتشكوفسكي – وهو العالم المتمكن من اللغة العربية والعارف بأسرارها – أدرك أن أسلوب القرآن الكريم خاص وفريد من نوعه، فحاول جهد المستطاع الاقتراب بالأسلوب العربي من الذائقة الروسية؛ كيما يمكِّن القارئ من الاقتراب أكثر منه شكلا ومضمونا. وقد جاء أسلوبه سهلا في متناول مختلف شرائح القراء؛ غير أن بعض النقاد لم يفهموا مغزى هذه المقاربة واعتقدوا أنه اعتمد النقل الحرفي في عمله[1]. والمختصون في فنون الترجمة يعلمون أن نقل المعنى والأسلوب معا إلى لغة أخرى يشكل المبتغى الأساس لكل ترجمة. وهذا لا يتأتى إلا نادرا، ولا ينجح في تحقيقه إلا ذوو باع طويل في علوم اللغة وفنونها.

ويمكن القول إن "كراتشكوفسكي" قد وفق إلى حد بعيد في مهمته، وإن عملَه يعد من أجود الترجمات الروسية لمعاني القرآن الكريم. ومع هذا كله، فإن عمله لا يخلو بالطبع من الهفوات متفاوتة الخطورة[2].

**حياته ومجال دراساته :**

ولد أغناطيوس كراتشكوفسكي في مارس عام 1883 في فيلون عاصمة ليتوانيا القديمة، وتوفي عام 1951؛ وكان أبوه عالم آثار؛ يعمل في معهد المعلمين هناك. و أبدى ومنذ وقت مبكر من حياته اهتماما بالآداب الشرقية ولغاتها. وفي فترة 1901 – 1905 درس في كلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ وتعلم اللغات العربية والفارسية والتركية والتتارية، وفيما بعد ركز اهتمامه على الدراسات العربية.

(1) انظر: "حول الترجمات الروسية للقرآن"، علاء الدين فرحات، مجلة فيستنك (مجلة الجمعية الدولية لأساتذة اللغة الروسية وأدبها)، عدد 13، موسكو، 1996. (بالروسية). 22.

(2) القرآن الكريم وترجمة معانيه، مصدر سابق، 5172/1.

درس التاريخ الإسلامي على يد المستشرق بارتولد[1] المؤسس الحقيقي لحركة الاستشراق في روسيا قبل كرتشكوفسكي.

وقد عانى كراتشكوفسكي مثل غيره من رجال العلم والثقافة في روسيا من الأوضاع المضطربة في البلاد بعد ثورة أكتوبر عام 1917، فاعتقل مع زوجته في 20 تموز عام 1922 وزُج به في سجن دائرة الأمن في زنزانة انفرادية، ووجهت إليه تهمة التجسس لحساب فنلندا. وكان الاتهام يعتمد على صلة زوجته بعائلة فنلندية كانت تزودهم بالمواد الغذائية في عام 1917، وقد تدخلت أكاديمية العلوم الروسية لدى المسؤولين لإطلاق سراحه، ولكن لم يطلق سراحه؛ بل سُمح له بالاستفادة من كتب المتحف الآسيوي لأكاديمية العلوم.

قرأ كراتشكوفسكي في السجن الكتب حول التأريخ العربي والإسلام والحضارة الإسلامية ودرس النحو العربي واللهجة المصرية، وكتب عدة مقالات وملاحظات. وقد أثمر تدخل أكاديمية العلوم الروسية في نهاية المطاف عن صدور قرار بنفي كراتشكوفسكي وزوجته إلى قازان. وتدخل في القضية ميخائيل سوكولوف العالم المختص بالدراسات العبرية وصديق كراتشكوفسكي واستطاع إقناع السلطات

(1) ولد المستشرق والمؤرخ والباحث اللغوي فلاديميروفتش بارتولد ف. بارتولد Barthold 1869 وتوفي في عام 1930م: درس التاريخ الإسلامي في جامعة بطرسبرج، وعمل فيها أستاذاً لتاريخ الشرق الإسلامي. اهتمَّ بمصادر التاريخ الإسلامي، فدرس ابن خلدون ونظريته في الحكم. انتخب عضواً في مجمع العلوم الروسي ورئيساً للجنة المستشرقين. مجال بحثه الرئيسي تاريخ شعوب ودول آسيا الوسطى الإسلامية والتفاعل بين الحضارتين الشرقية

ببراءته؛ فأخلي سبيله في 12 يناير عام 1923 وعاد إلى مكان عمله حتى وفاته في عام 1951"[1].

عمل كراتشكوفسكي أميناً لمكتبة اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ، وأستاذاً اللغة العربية في نفس الجامعة وفي عام 1921 انتخب عضواً في أكاديمية العلوم السوفيتية وانتخبه المجتمع العلمي بدمشق عام (1923) عضواً فيه. كما كان عضواً في العديد من الأكاديميات والجمعيات العلمية[2]. ثم شغل أخيرا كرسي أستاذ الأدب العربي بجامعة لينجراد، تعاونه في مهمته كلثوم فاسيلفا التي وقفت جهودها على نقل آثار نفيسة من الأدب العربي إلى الروسية[3].

زار كراتشقويفسكي مصر وسوريا وفلسطين عام 1908، وانكب خلال إقامته بهذه الأقطار على دراسة آدابها الحديثة، ومكث بها فترة طويلة بمدرسة اليسوعيين في بيروت. وظهرت نتيجة زيارته ودراسته في بحث ممتع ناشد فيه الأدباء المعاصرين أن يدونوا تراجمهم ويدرسوا آثارهم[4]. خصوصا وان هناك شخصيات

(1) Люди и судьбы. Биобиблиографический словарь востоковедов – жертв политического террора в советский период (1917–1991). — С. –Пб.: Петербургское Востоковедение. Я. В. Васильков, М. Ю. Сорокина. 2003
قاموس ببليوغرافية المستشرقين – ضحايا الإرهاب السياسي في الحقبة السوفياتية (1917–1991). – سانت بطرسبورغ: الدراسات الشرقية. Vasilkov YV، M. يو سوروكين. في عام 2003.

(2) كراتشكوفسكي والشرق الإسلامي، محمد سليمان حسنين التراث العربي، العدد 91. دمشق، 2007. 11.

(3) في الأدب العربي الحديث. مجلة الرسالة. . أغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة محمد أمين حسونة، العدد، 173 السنة 1933، ص 27.

(4) المصدر نفسه. 27.

علمية أثرت في تطور الاستعراب الروسي. يقول كراتشكوفسكي: (إلى جانب عمالقة عملنا الاستعرابي أمثال فرين وروزن، وإلى جانب الروس، يقف عربيان عملاً في روسيا، أولهما الشيخ الطنطاوي المصري، وثانيهما مرقص الدمشقي)[1].

ولـ كراتشكوفسكي كتاب مهم هو تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ويقع في 900 صفحة. قام بترجمته صلاح الدين عثمان، ويبدو من مقدمة المؤلف أنه أنهى كتابه هذا في موسكو في 1943/10/10م، وقد ختم المجلد الثاني بتعليق ضافٍ للدكتورة عائشة عبد الرحمن. مع أنها – رغم ذكرها لمحاسن الكتاب – أوردت نقودا ومآخذ رأت أنه قد وقع فيها، ومع ذلك ضمنها هو في مقدمتها كاملة كما هي.

تقول بنت الشاطئ ما ملخصه: " من الإنصاف أن أقرر أن هذا الكتاب يحمل أثر جهد شاق، وثمرة عمل مخلص استغرق نحو ثلث قرن أمضاه الأستاذ «كراتشكوفسكي» في جمع مادته الخصبة عن تاريخ الأدب الجغرافي؛ إلا أن فيه أقوالا خاطئة في الإسلام والقرآن الكريم، نخالفه فيها ونؤاخذه عليها، واعترف مع ذلك بأنه من أحرص المستشرقين على ضبط قلمه من جماح الهوى التعصب[2].

ومن لطائف سيرته العلمية المعايشة الشعبية للمجتمع العربي التي ذكر فيها الكثير من حواراته مع عوام الناس مبينا سلوكهم وطرائق حياتهم البسيطة وتلقائية تعاملاتهم مع الآخرين[3].

ويحدد الأستاذ محمد الحجيري المحاور التي اشتغل عليها كراتشكوفسكي في تاريخ اللغة العربية وآدابها في ثلاث دوائر هي[1]:

---

(1) مع المخطوطات، كراتشكوفسكي، صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر. تعريب محمد منير. 1969. دار النهضة العربية. القاهرة. 222.

(2) أنظر مقدمة كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان. صـ 13. دار المعارف. القاهرة. 1964.

(3) مع المخطوطات العربية، أغناطيوس كراتشكوفسكي. 47.

1- تاريخ الشعر العربي ونقده منذ أقدم العصور وحتى يومنا الحاضر.

2- الآداب العربية في نتاج الأدباء غير المسلمين.

3- تاريخ الأدب العربي منذ بدء النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد عنى كراتشكوفسكي بأدباء العصر العباسي: من أمثال أبي العتاهية والمتنبي والمعري، وكثير غيرهم.

وحصيلة ما تركه كراتشكوفسكي يربو على أربعمائة وخمسين أثرًا بين مُصنَّفٍ ومترجم ومفسر ومنقود، باللغات الروسية والفرنسية والألمانية والعربية[2].

إلا إنه اهتم كذلك بآثار روّاد النهضة في الأدب العربي الحديث فقام بترجمة لمختارات من الكُتاب العرب أمثال: قاسم أمين، وأمين الريحاني، وإبراهيم اليازجي، كما قام بترجمة الجزء الأول من كتاب (الأيام") لـ طه حسين، وله دراسة بعنوان: آراء طه حسين في الشعر الجاهلي ومن نقدوها، وترجمة لصفحات كتبها ميخائيل نعيمة عن حياته[3]، وعودة الروح لتوفيق الحكيم إلى الروسية[4].

وبرعايته صدرت سنة 1939 دراسة في موسكو عن رسالة ابن فضلان حوت مقدمتها الروسية التي قدمها كراتشكوفسكي دراسةً للرحلة ولصاحبها، وتُرجمت

---

(1) انظر: علم البديع والبلاغة عند العرب، أ. ج. كراتشكوفسكي، إعداد محمد الحجيري، ط1، (د/م، دار الكلمة للنشر، 1981). 14.

(2) المستشرقون الروس والأدب العربي، كراتشكوفسكي أنموذجًا عاصم حمدان مؤسسة المدينة للصحافة والنشر. عدد 17831. 2012 / 2.

(3) ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ط1، (د/م، 1984)، 321 – 25.

(4) في الأدب العربي الحديث. كرتشكوفسكي. مجلة الرسالة. العدد 173. مصدر سابق. 27.

الرسالة إلى الروسية؛ مع ملاحظات ملحقة بالفهارس، وهي من أدق ما كتب عن هذا الكنز الاستشراقي القديم[1].

وكان معهد لينينغراد للدراسات الشرقية سنة 1928 قد أصدر له منتخبات من الأدب العربي الحديث 1880 –1925 من إعداد السيدة كلثوم فالسيليفا. وقد صدر لها كراتشكوفسكي بمقدمة من خمس وعشرين صفحة؛ تحدث فيها عن التطورات الأدبية التي تمت في تلك الفترة، وضمنها ملامح لكل كاتب من الكتاب الذين وقع الاختيار عليهم، مع مقدمة موجزة باللغة الإنكليزية "[2].

أما الأثر الأكثر شهرة وريادة في تاريخ الأدب فهو كتابه: دراسات في تاريخ الأدب العربي / منتخبات؛ قديمه وحديثه، والذي نُشر في أكاديمية العلوم ويقع في 220 صفحة.

ومهما يكن فإن كراتشكوفسكي له فضل التوسع والسبق في فتح مجال الدراسات في تاريخ الأدب على وفق منهج حديث؛ هذا فضلا عن نزعة الشمول والتوسع التي تضمنتها بحوثه ودراساته. ولقد أشاد المستشرق البريطاني هاميلتون گب – وهو من المعنيين بتاريخ الأدب العربي – بريادة كراتشكوفسكي في دراسة الأدب العربي الحديث بوصفه أوربيا حاول وبتوسع استكشاف هذا الجهد الإنساني

(1) رحلة ابن فضلان إلى البلغار، منشورات المجمع العلمي السوفييتي، مع مقدمة أغناطيوس كراتشكوفسكي، (د/م، 1939)، 7.

(2) أنظر: دراسات في الأدب العربي ع. ف. غرنباوم. ترجمة إحسان عباس والمجموعة. دار مكتبة الحياة بيروت. 1959. 244.

والثقافي[1]، وهو أول مَن كتب في تاريخ الآداب العربية من الروس منذ بدء النهضة في القرن التاسع عشر[2].

**دراسات في تاريخ الأدب العربي القديم:**

لم يكن كتاب كرتشكوفسكي دراسات في تاريخ الأدب العربي / منتخبات؛ كتابا تقليديا في التأريخ للأدب العربي؛ بل مجموعة من بحوث ترجمتها وطبعتها تلميذته كلثوم عودة فالسيفا[3] بالاشتراك مع محمد المعصراني، وتتوزع مباحثه على

---

(1) Studies in Contemporary Arabic Literature. Nineteenth century Bulletin of Orientalism study Hamelin Jibb. Vol. 4, No. 4. 1928 , pp. 747

(2) ينظر: ترجمة كرتشكوفيسكي بقلمه: مجلة المجمع العلمي بدمشق، ج 4/3، 1927، 223.

(3) ولدت في عائلة معروفة في الناصرة في 2 ابريل/نيسان 1892. وبعد إنهاء الابتدائية التحقت بالمدرسة الروسية في بيت جالا، وبعد التخرج عادت إلى الناصرة فعملت معلمة في مدارس الجمعية الروسية ومارست نشاطا أدبيا بنشر مقالات في مجلات عديدة منها" النفائس العصرية" في حيفا و"الهلال" في القاهرة و" الحسناء" في بيروت". والتقت كلثوم في الناصرة لأول مرة المستشرق الروسي الكبير اغناطيوس كراتشكوفسكي الذي زار فلسطين في فترة (1908 – 1910) ولعب دورا كبيرا في مسيرة حياتها لاحقا. وقد أشار كراتشكوفسكي في كتابه " المخطوطات العربية" إلى لقائه معها، تزوجت عام 1913 من الطبيب الروسي ايفان فاسيلييف.

سافرت كلثوم وزوجها إلى روسيا الذي عمل في فترة الحرب العالمية الاولى في الجبهة وتطوعت ممرضة، وعندما قامت ثورة أكتوبر التحق زوجها بالجيش الأحمر، وفي عام 1919 أصيب بالتيفوئد وتوفي تاركا ثلاث بنات. فعملت كلثوم فلاحة في أوكرانيا من اجل إعالتهم. بدأت بتدريس اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية في بطرسبورغ وحصلت على الدكتوراه في عام 1928 عن رسالتها حول اللهجات العربية. ومارست كلثوم في هذه الفترة الترجمة من الروسية إلى العربية وبالعكس. فترجمت رواية الكاتب العراقي ذوالنون أيوب " الأرض واليد والماء" إلى الروسية وكتاب كراتشكوفسكي عن محمد عياد الطنطاوي إلى

محاور أربعة: الشعر العربي، كتبه في عام 1924. والبديع عند العرب، كتبه 1930، والحضارة العربية في الأندلس، كتبه 1940، ثم العربي في الأندلس، كتبه 1964.

ومنهجه في بحوثه تلك التوصيفُ العام أحيانا؛ والدقيق في مفاصل معيَّنة أحيانا أخرى؛ مركزا فيه على البعد الحضاري وعلى تاريخانية النص؛ سواء كان نصا أدبيا محضا أم كتابا نقديا.

والتاريخانية بحسب رايموند وليامز وبول هاملتون[1] ذات معان مختلفة سنرى كيف أن كرتشكوفسكي قد أحاط بها إحاطة عملية بغية الكشف عن مكنونات النص[2].

---

العربية؛ وترجمت لكراتشكوفسكي: دراسات في تاريخ الأدب العربي، ومنتخبات من الأدب العربي.

إن أعدادا كبيرة من المستعربين قد درست اللغة العربية جيلا بعد جيل على يديها". وعانت كلثوم كثيرا لدى إقامة دولة إسرائيل وتوجيهها رسالة إلى ستالين تحتج فيها على اعتراف الاتحاد السوفيتي بالدولة العبرية. وزج بها في السجن ولم ينقذها سوى تدخل كراتشكوفسكي وكبار العلماء الروس للدفاع عنها.

(1) Historicism. Paul Hamilton. First published 1996 by Routledge. 11 New Fetter Lane, London EC4P 4E. Introduction. pp. 3

(2) ومن تعريفات التاريخانية:

أنها المنهج الدراسي المعتمد سوابق الأحداث الحالية. والمعنى الآخر: معنى سلبي يرى ألا دخل لمجريات الماضي في وقائع الحاضر. انظر

Keywords. A vocabulary of culture and society. Raymond williams. pp. 147. Revised edition. Oxford university press, 200 Madison avenue, new. York, ny 10016.

أما الناقد التاريخي بول هاملتون فيرى أنها حركة نقدية تشدّد على الأهمية الأولية للسياق التاريخي لتأويل النصوص. إنها معنية بجعل أية عبارة ضمن سياقها التاريخي، من أجل سبر المدى

**الشعر القديم:**

قبل حديثه عن الشعر الجاهلي يبدأ كراتشكوفسكي كتابَه بإثارة قضية يخاطب فيها العقل الغربي أو على الأخص الروسي، ومفادها: أن ما ندعوه شعرا عربيا هو على الحقيقة ليس عربيا صرفا؛ لأن الذين كتبوه لم يكونوا جميعهم عربا من حيث الدم والعرق؛ عدا أنهم نظموه باللغة العربية. وأن الفهم الغربي الذي يحيل الشعر العربي إلى ما نُقل إليه من أشعار إلف ليلة وليلة خللٌ كبير، ذلك لأن شعر " ألف ليلة وليلة " نظمه شعراء كثيرون متنوعو الأعراق، وأن ما يجمعهم فيه هو اللغة العربية وتشربهم بحضارة الإسلام. أما المعنى الدقيق الذي يصح أن نطلق عليه شعرا عربيا فهو شعر العصر الجاهلي والشعر في العصر الأموي[1].

وعلى ما في رؤية كرتشكوفسكي مِن مآخذ حين نحملها على وجه التعميم؛ إلا أنه أراد بها فكرة تعريفية لهوية ذلك الشعر؛ بدليل أن أدلته التي يسوقها تخص الشعر في العصر العباسي والعصور الأندلسية؛ وهو يخاطب برؤيته تلك الإنسان الأوربي حصرا؛ ليدلل على أن هذا الشعر ليس أدبا قوميا بحتا؛ بل هو أدب شعوبٍ كثيرة دخلت الإسلام واستظلت بمظلة الدولة الإسلامية ونطقت بلغتها؛ لكنه ما

---

الذي ينعكس فيه أي مسعى تاريخي. وأكثر التيارات بروزا في أواخر القرن العشرين مثل ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة قد عنت بفكرة أن الفهم ينوجد بفهم تفاصيل التاريخ. انظر

Historicism. Paul Hamilton. First published 1996 by Routledge. 11 New Fetter Lane, London EC4P 4E. Introduction. pp. 3

وقد جمع كرتشكوفسكي بين المعنيين؛ مركزا على تاريخانية النص غالبا؛ دون المبالغة بسيرة المؤلف؛ لأنه كان معنيا بالبعد الحضاري المشكل للنتاج الفكري أو الفني. وهو لم يتبع منهجا زمنيا متدرجا؛ بل تحليلا مجملا لنتاجات الحضارة والأدب في الأماكن والأزمان التي تحدث عنها.

(1) دراسات في تاريخ الأدب العربي، كراتشكوفسكي، مجموعة مترجمين، دار علوم، (موسكو:1965)، صـ 3.

اشتطت الآراء حول هذا الأدب وانتماءاته فإنه يبقى أدبا كتب بلغة العرب؛ وهذا لا ينقص من فضل أحد، ويزيد من شأن العربية بوصفها لغة معتقدٍ وحضارة وفن.

ويتعرض كراتشكوفسكي إلى قضية مصدرية ذلك الشعر؛ ويرى أن ما دُوِّن منه لا يمثله كله؛ بل هناك الكثير مما ضاع؛ بفعل فقدان التدوين المبكر؛ وان هذا الأمر إضافة إلى قضية الانتحال لا يؤثر في أصالته وعبقريته[1].

أما رأيه الأكثر خطورة في طبيعة لغة الشعر الجاهلي فيتمثَّل بنفي افتراضين؛ مفادهما: أن اللغويين هم من وضع الفصحى (لغة قريش)، أو أنهم طمسوا على اللهجات الأخرى وأبقوا على ما ورد بلغة قريش. ويعلل نفيَه لكلا الافتراضين بأن اللغويين ذاتهم أكدوا على وجود تلك اللهجات وبحثوا فيها؛ وان اختلاف تلك اللهجات لم يظهر جليا إلا بعد انتشار الإسلام؛ لأن العرب قبله كانوا متقاربين؛ فمن الطبيعي أن تجمعهم لهجة واحدة تواضعوا عليها.

هذا فضلا عن كون لغة الشعر تكشف عن إتقان عظيم؛ هو لاشك نتيجة تطور تاريخي واسع، فضلا عن عَروضه المتقنة؛ التي لم تقم إطلاقا على أساس الطول المقطعي التعاقبي، بل أن العربية هي اللغة الوحيدة التي أنجبت عَروضا مستقلا، وهذا الاستعمال العروضي جاء بشكل غريزي، وليس من السهل الوصول إلى أجوبة علمية على نشوئه[2].

ومع أن كراتشكوفسكي دافع عن موضوعات ذلك الشعر، وعن شكله البنائي وعن صحته بشكل عام، إلا أن له رأيا متطرفا – على صعيد جرسه اللغوي وموسيقاه – مفاده: " أن الموسيقى اللفظية لهذا الشعر ضعيفة، وأن حلاولته الداخلية نادرة "[3]. ونستغرب منه مثل هكذا موقف؛ في وقت كانت العناية اللفظية وحلاوتها وروعتها

(1) م. ن. 6.
(2) م. ن. 7 – 8.
(3) م. ن. . 13.

إحدى المآخذ التي أتخذها قسم من نقَّاد هذا الشعر قديما وحديثا؛ بحجة أنه يعنى بالشكل أكثر المضمون. وأنه غنائي إيقاعي، فعلى أي أساس أورد رأيه هذا، إلا لكون تحسسه البلاغي والموسيقي لهذا الشعر لم يكن ليتجاوز معرفته بالمعاني، وهو أوربي الحس والثقافة والذوق.

**الأدب العربي بعد العصر الجاهلي:**

يتعرَّض كراتشكوفسكي للشعر في صدر الإسلام والشعر الأموي، ويصِفه بسهولة ألفاظه نسبيا؛ مقارنة مع الشعر الجاهلي، وعلامته نبذ الأغراض القديمة مع الحفاظ على الوزن والقافية؛ وهو مصوغ بلهجة عاطفية بدائية؛ ثم انتشار شعر الرجز فيه كعلامة فارقة "[1]. ولكنه يسلم بان فكر الجاحظ في نظرية الأدب؛ يمثل عناءً للقارئ؛ نظرا لأسلوبه الخاص، ولطريقة تناوله للقضايا النقدية، وكراتشكوفسكي ترك نقاد ذلك العصر وسلط الضوء على الجاحظ؛ نظرا لأثره الكبير في فكر ابن المعتز لاحقا[2]، وفهو يرى بأننا ومن خلال الجاحظ يمكننا إيجاد المؤثرات الأولية لتطور العلوم البلاغية وعلم البديع بشكل خاص[3].

في العصر العباسي ظهرت الفنون الجديدة وتمت العناية بالبديع كضرب من العناية اللفظية؛ خصوصا تحت تأثير نظرية ابن المعتز؛ فهو شعر قائم على شحن ألفاظه بالمحسنات البلاغية. ويحاول في مبحثه عن ابن المعتز وكتابه البديع تحرى العلاقة بينه وبين السابقين عليه وخصوصا الجاحظ، إلا انه يحلل علاقة الكتاب بمباحث قدامة بن جعفر التي يراها أكثر نضوجا مما هو عليه الحال لدى ابن

(1) م. ن. 13.
(2) م. ن. . 40 – 41.
(3) م. ن. . 45.

المعتز وقسم من سابقيه ولاحقيه؛ فكتاب نقد الشعر بحث كامل يفوق بغناه كتاب ابن المعتز.

والملاحظ أن جل تركيز كراتشكوفسكي كان على علم البديع برواده الثلاثة وهم كل من الجاحظ وابن المعتز وقدامة بن جعفر. لكن طريق تطور علم البديع لم يتجه وجهته الكاملة نظرا لميول الجاحظ الفلسفية وعدم تأثر ابن قدامى بالمنحى التنظيمي؛ في وقت كان ابن المعتز تراكميا مكدسا في بث أفكاره وشواهده[1].

ويرى كراتشكوفسكي بعامة أن الشعر في العصر العباسي يشكل انحطاطا في مستواه الفني؛ لا الكمي[2]. وهو إذ يتعرض لهذا العصر ينتقد أحيانا آراء النقاد منذ الجاحظ فصاعدا؛ مما ينم على سعة اطلاعه على كتب النقاد الآخرين؛ وله فيهم مواقف وآراء متباينة. مع ذكر الكثير من الشواهد الشعرية المتعلقة بالنشاط الأدبي عامة؛ والنشاط البلاغي بخاصة[3].

**الأدب في العصر الأندلسي:**

وحين ينتقل إلى العصر الاندلسي يستعرض أمورا تخص الفعل الحضاري؛ وتأثير ثقافة الاندلسيين على الشرقيين والغرب الأوربي. ويمهد بحديثه عن الحضارة الأندلسية مبينا القصور والفقر الروسي في الاطلاع على تلك الحضارة ومنتجاتها الثقافية والأدبية؛ لذلك حاول الإسهام بمحاضرات ألقاها في معهد لينين كراد عام 1936؛ ولكن اضطر إلى الاختصار جهد طاقته؛ دون الإيغال في الأمور الدقيقة؛ نظرا لخلو الذهن الروسي منها، ولضيق وقت المحاضرات التي ألقاها[4].

(1) م. ن. . 45 – 48.
(2) م. ن. . 17.
(3) م. ن. . 41.
(4) م. ن. . 50.

ويرى أن أحدا من المستشرقين لم يكتب في مجال الحضارة الأندلسية وآدابها مثل المستشرق الهولندي (دوزي) لكن مواهب دوزي الفنية طغت على شكه العلمي؛ بحيث أن من يقرأ كتابه تاريخ العرب في أسبانيا يشعر وكأنه يطالع كتابا في رواية تاريخية تطغى عليها النزعة الرومانتيكية، ولنصف قرن لم يجرؤ احد على تقديم دراسة موسعة شاملة كتلك التي كتبها دوزي؛ حتى انه استشهد بالمقولة المأثورة: إن من يكتب عن العرب بعد دوزي كمن يكتب عن الإلياذة بعد هوميروس[1].

والقارئ لموضوعه هذا يدرك مدى تمكن كراتشكوفسكي من التفصيل التاريخي للثقافة الأندلسية، ومدى معرفته بالجانب الحضاري فيها؛ مقارنة مع أحوال أوربا آنذاك. غير انه يورد أفكاره من دون الإحالة إلى مصادرها، وهذا لاشك بفعل منحى الموضوع حيث كان مجرد محاضرات تتلى أمام الملأ؛ خلا إشارته في نهاية البحث إلى قائمة المصادر التي تختص بالدراسات الأندلسية؛ مضيفا إليها تعليقاته الشخصية.

ويكاد مجمل كلامه عن الأندلس يختص بفنون الأدب؛ وينحصر في التركيز على الموشحات، ويبدو أنه كان على دراية واسعة فيها؛ وعلى معرفة بعروضها وطرائق نظمها، فيبين تطورها وتحولاتها وأنواعها وأغراضها وأثرها على القصص والشعر الأوربي؛ وهو يعد الشعر الاندلسي امتدادا للشعر المشرقي وللثقافة المشرقية، ومَعيْنا لقسم من الأدب الأوربي كذلك[2]. لكن منحاه النقدي في تناول الحضارة الأندلسية يدل على توسع وإيغال في تحليل التأثر والتلاقح الحضاري. وبحوثه في هذا المجال تكاد تكون مثابات لتوجيه دراسات الأدب المقارن توجيها نظريا؛ لعمق ما فيها من تحليلات ونظريات اشتقها من أحوال

(1) م. ن. . 52.

(2) م. ن. 83.

إجرائية حصلت بين الآداب والثقافات الغربية والثقافة الأندلسية. وهو ينفي عنصر التغييب والنكران الذي يجنح إليه البعض لمصادرة اثر الاندلسيين في الثقافة الأوربية وفنونها فيقول مثلا:

(بدأت أهمية الزجل تتجلي بوضوح في العقود الأخيرة وبدأ الأسلوب الروماني وكماله يتجليان بنمو هذا الأسلوب الجديد الذي انتشر بسرعة. . . . وقد أثبتت البحوث العلمية أن استعمال أوزان الزجل ازدهرت في قرطبة وطليطلة قبل ظهورها في أوربا بخمسين سنة، فالأسلوب البروفنسالي عند التروبادور الأولين بتفاصيل خروجه على المعتاد يشبه الأسلوب العربي في أسبانيا، وعادة يعترضون على تأثر العرب المباشر بقلة انتشار الكتب العربية بين الشعوب الرومانية؛ وهذا اعتراض فاشل عندما نتكلم عن الانتشار الشفوي (لهذا الفن) خصوصا؛ فالزجل نظِّم بالعامة التي ازدواجت فيها لغة أهالي الأندلس على عهد العرب)[1].

ولم يترك كراتشكوفسكي فنًّا أندلسيا إلا وتعرض له بالدراسة والنقد التاريخي والشكلي؛ مع عنايته بالموضوعات؛ كاشفا عن امتداداتها وتطوراتها. وخصوصا إبداعه النقدي في الكشف عن الشعر الشعبي، ولغته العامية[2]؛ مركزا على أعمال ابن قزمان تركيزا شديدا.

وإذا شاء الدارس معرفة الأحوال الثقافية والاجتماعية في الأندلس في عصورها المختلفة فسيفيد من تفصيلات كرتشكوفسكي إفادة واسعة بحيث سيرى طغيان البعد الحضاري على البعد الأدبي مما يغني الدراسة التاريخية لذلك الأدب.

تاريخ الأدب الحديث

(1) م. ن. 74 و 83.

(2) م. ن. 136.

يتناول كرتشكوفسكي تاريخ الأدب الحديث في بحثه الموسوم الأدب العربي الحديث والذي قام بترجمته منير حسونة في مجلة الرسالة التي اشرف على تحريرها أحمد حسن الزيات.

ويتناول في مستهل بحثه العوامل السياسة والتاريخية التي أسهمت في نشوء هذا الأدب، بعد أن كان من العسير " على الباحث المحقِّق أن يعثر على آثار النهضة الأدبية في العصور السابقة للقرن التاسع عشر. لإنها كانت مظاهر فردية الغرض؛ منها إحياء الفنون اللغوية القديمة، دون محاولة التجديد في الأدب "[1]. ويعلل ذلك بأسباب عديدة أهمها: حملة نابليون على مصر وإدخالها الطباعة المنظمة، فأدخلت الحملة الصحافة الدورية؛ التي تطورت حين أعاد تنظيمها محمد علي. وكان لها الفضل في تقدم الأدب الحديث، إذ وجهت بعض الأنواع الأدبية وجهات جديدة، كما ساعدت على ظهور أنواع أخرى؛ فالعرب لم يتأثروا بالتيارات الفكرية في أوربا إلا بعد الحملة الفرنسية[2].

لكن النشاط الثقافي المتواصل مع ثقافة الغرب نما أول مرة من جرَّاء الروابط التي نشأت بين الأقليات المسيحية في سوريا ودوائر روما واستامبول، يتصدرها مطران حلب السيد جرمانوس فرحات (1670 – 1732. كما عملت الارساليات الأوربية والأمريكية في هذا السبيل، فأسست مدارس منوعة، وراح الأهلون ينسجون على منوالها في إنشاء دور العلم، فكانت مدرسة بطرس البستاني (1819 – 1883) أولى المدارس الوطنية "[3].

وفي خلال القرن التاسع عشر انتعشت حركة البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي الكبير فأكملت ما قامت به المدارس من الخدمات.

---

(1) "في الأدب العربي الحديث، مجلة الرسالة. العدد 170 سنة 1935. ص 29.

(2) دراسات في تاريخ الأدب العربي، 27.

(3) م. ن. 28.

" استهلت الحركة نشاطها بترجمة الكتب العلمية ثم شُرعت في نقل الكتب الأدبية. وإن الأدب العربي الحديث كان مستحيل النشوء لولا مترجمو القرن التاسع عشر. وللمرة الأولى في التاريخ أصبح الأدب القديم في متناول القراء بفضل الطباعة. وقد قامت هذه الحركة على أساس أنه لا يجوز نبذ الأدب القديم كله لتشييد أدب عربي حديث، بل يتعين الاحتفاظ بجزء من الأدب القديم وإعادة تنظيمه.

وإلى جانب الصحافة الدورية. أحدثت المنتديات العلمية والسياسية والأدبية في الجو الأدبي أثراً عميقاً. بل إن النثر الخطابي نشأ وتدرج في تلك المنتديات. وللهجرة أهمية خاصة ترجع إلى تقلبات مصير العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، وذلك لاعتبارات متنوعة من سياسية واقتصادية. إذ نزحت بعض الأسر عن مصر وأقامت في فرنسا.. وإلى أمريكا الشمالية والجنوبية. وكان لهجرتها أهمية في تكوين الأدب العربي الحديث"[1].

وكثير منهم أصبحوا أساتذة الآداب العربية كالشيخ الطنطاوي المدفون ببطرسبرج (1810 – 1861)، والشيخ حسنين عبد الرازق لاحقا؛ والذي عمل في مدرسة الدراسات الشرقية في لندن؛ ونشر بحوثا في اللغة العربية في نشريات المدرسة، وهو من خريجي دار العلوم بالقاهرة[2].

(1) م. ن.

(2) حسنين عبد الرازق: مدرس للتربية وعلم النفس والمنطق. تعلم بدار العلوم، في القاهرة، وكلية (ريدنج) بإنكلترا، وأجاد مع العربية والإنجليزية الفرنسية والفارسية. وكان من أعضاء الجمعيتين (الآسيوية الملكية) و(الجغرافية) بلندن. وأستاذ كب في مدرسة الدراسات الشرقية. وسيرد الحديث عنه تباعا. ولقد نشر دراسة بالغة الأثر في التعريف بالأدب العربي. وكانت بعنوان:

Arabic Literature Since the Beginning of the Nineteenth Century

وقد قسم كراتشكوفسكي الاتجاهات التي حكمت تلك الفترة ووصفها وصفا نفسيا عميقا مبينا مدى الاختلاط والصدمة من عملية التغيير التي حدثت بفعل النفوذ الأوربي. فكان هناك اتجاهان رئيسان يتوزعان بين الأفكار القديمة وبين الأفكار الحديثة. " وأهم الميول التي ظهرت بجلاء آنذاك هي أولاً: الاحتجاج على كل جديد ومحاولة البقاء في دائرة القديم، وإحياء الأساليب القديمة.

ثانياً: السير سيراً سطحياً على منوال الأوربيين، وتقليد أفكارهم واحتقار الماضي العربي بأسره.

ثالثاً: محاولة صبغ الأصول الصحيحة للأدب العربي بأشكال جديدة مبتكرة من أساسها.

والفريق الأخير هو الذي فاز بأوفى عدد من الأنصار. وبديهي أن مصير العرب السياسي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثر تأثيراً كبيراً في التيار الأدبي؛ فتاريخ هذا العصر هو تاريخ الانفصال تدريجياً عن الدولة العثمانية (سواء من الوجهة السياسية أو الأدبية)؛ فنشأة الروح القومية التي اجتازت مراحل نموها بخطوات تختلف سرعتها باختلاف البلاد. . . . أما في ميدان الأدب فإن تلك النزعة تنمو وتقوى في مصر حيث يدعو بعض المفكرين إلى تمصير اللغة وإحياء الأدب القومي"[1].

لكننا نرى أن رأي كرتشكوفسكي رغم ما يحمله من صحة فهو مبالغة ربما نشأت من تفاعله مع عينة محددة من الأدباء وخصوصا في لبنان ومصر ومن ذوي النزعة التي وقفت موقفا سلبيا من التراث العربي ولغته وخصوصا النصارى؛ أو مَن لهم ميول وارتباطات ثقافية وسياسية بأوربا من أمثال عثمان جلال .

وربما استقى كرتشكوفسكي رأيه هذا – كباقي المستشرقين الذين درسوا تاريخ الأدب العربي الحديث – من لويس شيخو في كتابه تراجم مشاهير الشرق.

(1) في الأدب العربي الحديث. مصدر سابق، ص44.

فعثمان جلال هذا كان من دعاة الكتابة بالعامية، وترجم روايات تمثيلية إلى العامية المصرية "[1]. وهو من تلاميذ رفاعة الطهطاوي.

في تلك المرحلة يبدو أن الأمر لم يعدو أن يكون مجردَ صراع يعلوه الغبش والعاطفة من كلا الاتجاهين، مع عدم استيعاب فكرة: أنَّ التحولات الفكرية والتطورات الثقافية كانت تعصف بالعالم بأسره، وليس بالعالم العربي وحده؛ لذا فان دعاة التجديد كانوا يندفعون وراء تيارٍ مضطربٍ أساسا؛ وغير مستقر؛ حتى في بيئته التي احتضنته؛ وشأنهم في هذا شان ((الجماعات الصغيرة انساقوا أو اضطروا إلى الاندفاع في التيار مجاوزين الحدود المعقولة. وهم حين حاولوا أن يجذُّوا صلتهم بالماضي فإنما كانوا يحاولون قطع جذورهم نفسها. ولا يرجى منهم في هذه المرحلة أن ينتجوا أي اثر أدبي يتسم بالإبداع))[2].

ومع ذلك فـ كراتشكوفسكي يعترف بأن (من الصعب تقسيم الأدب العربي في القرن التاسع عشر إلى عصور تميزه تمييزاً واضحاً، فقد كان الإنتاج الأدبي في حد ذاته إلى عام 1880 تافهاً نوعاً ما. . . . وهو عصر بحث واستطلاع أكثر منه عصر إنشاء أدبي.

ويمكن تحديد هذا العصر من سنة 1880 إلى 1890، ثم من سنة 1890 إلى سنة 1900، وهي الفترة التي اختفى فيها من المضمار الجيل الأول لناشري النور الجديد ودعاة الأدب الغربي، وبرز في كل من سو ومصر رجال عظماء كبطرس البستاني في سوريا، ورفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك وعبد الله فكري، وفي البلاد غير العربية امتاز العصر بظهور بعض الكتاب النوابغ كأحمد فارس الشدياق (1804 – 1887).

(1) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان(القاهرة، دار الهلال. د/ت)، 2/ 585.

(2) دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون گب، ترجمة: إحسان عباس، (بيروت، دار العلم للملايين، 1964)، 32.

في هذه الفترة أنشئت الصحافة الدورية وتكون الأسلوب الصحفي، وشهدت السنوات العشر المتخللة بين سنة 1860 و 1870 تغيرات خطيرة في مركز الأدب العربي الحديث "[1]. فحوادث دمشق سنة 1860، واستقلال لبنان استقلالاً داخلياً من جهة، وافتتاح قناة السويس (1869)، ثم نشوب الثورة العرابية (1882) أدت إلى احتلال القطر المصري من جهة أخرى؛ كل هذه العوامل أسهمت في تعديل الطرق التي سار عليها الأدب. ولقد اتسع نطاق الهجرة السورية إلى مصر اتساعاً كبيراً في الفترة من سنة 1890 إلى سنة 1900، فانتقلت إلى أيدي السوريين جميع الصحف الإصلاحية قوية النفوذ.

ويرى كراتشكوفسكي أن جهود أدباء المهجر وخصوصا في أمريكا الشمالية والبرازيل كان لها اثر واسع في تطوير الأدب وفي إدخال الأساليب العصرية في النثر. ومع ذلك فإنها فشلت في إحلال العامية بدل الفصحى؛ إلا أن اثر هذه المدرسة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ لتحل بدلها مدرسة جديدة انتشرت في مصر بزعامة محمد حسين هيكل بك (1888)؛ والتي امتازت برجوعها إلى القديم وتطوير أساليبه مع عنايتها بالنقد وبالتاريخ الأدبي؛ وبالقصة، هذا فضلا عن انتشارها في العالم العربي[2].

أما بخصوص الشعر فرأى كرتشكوفسكي انه تطور بفعل التجديد في الشعر القديم بنماذجه السامية التي صدح بها شعراء كالمتنبي وأبي تمام والمعري. وكان على راس هؤلاء في من مصر ولبنان أحمد شوقي والبارودي وحافظ إبراهيم واليازجي وميخائيل نعيمة.

أما في العراق فكان هنالك شاعران جديران بالذكر وهما يمثلان الاتجاه الجديد خير تمثيل، أولهما الزهاوي (1869 – 1936) والرصافي (1875). وقد

(1) في الأدب العربي الحديث. مصدر سابق، ص45

(2) م. ن.، 46.

كـان الزهـاوي مشـرباً بـالروح الفلسـفية، وكـان يطلـق لنفسـه الحريـة فيمـا يتعلـق بالأسلوب؛ بعكس الرصـافي الذي حصـر شـعره فـي دائرة الأسلوب التقليدي، لكنـه امتـاز بالواقعيـة، سـواء فـي شـعره الغنـائي، أو السياسـي والاجتمـاعي؛ وقـد جـاوزت شـهرة هذين الشـاعرين حدود بلادهمـا. أمـا فـي سـائر الأقطـار العربيـة، فالشـعر رغم وفرته وكثرة إنتاجه، لا تتعدى أهميته الحدود المحلية[1].

ويتبـين مـن سـرد الأسـماء والتـواريخ أن كراتشكوفسـكي فـي بحوثـه هـذه كـان علـى إطـلاع واسـع بهؤلاء الشـعراء الـذين تعـرض لبعضـهم بالنقد الأسـلوبي والموضـوعات الشعرية. وتعد آراءه مرجعا تتبعه وقلده فيها لاحقوه ممن دونوا لتاريخ الأدب العربـي الحديث.

**القصة العربية الحديثة:**

عنى كرتشكوفسكي بالتأريخ للقصة في الأدب الحديث، ورأى أنها " لم تنشأ من أصل عربي كالمقامات والقصص الحماسية بل ترعرعت بتأثير الأدب الأوربـي. وقد ظهرت أولاً القصة التاريخية التي لم تصل إلى شأو الكمال من الوجهة الأدبية. " كـان أول بـزوغ لهذا النـوع فـي محيط البسـتاني بسـوريا، بقصـد اتخـاذه وسـيلة فـي التربيـة والتعليم. وفـي عـام 1884 وضـع جميل المـدور (1862 – 1907) أخبـار أيام هارون الرشيد؛ فارتفع بهذا النوع إلى مكانـة أسمى، وإن كانت تلك (الأخبار) أقرب إلى الآثار منها إلى الأدب، وقد بلغت القصـة التاريخيـة ذروتها فـي مؤلفات جورجي زيدان.

وعلى هذا فـ كراتشكوفسكي ينفي تطور القصة العربية عن المقامات العربية القديمـة؛ ويرى أنهـا أدب وافد؛ مـع أنـه كـان أقر بـأن بوادرها ذات صـبغة تعليميـة. ولاشك فإن القصـص التعليمـي قد ورد فـي التراث العربـي بأنمـاط واتجاهات شـتى؛

(1) م. ن. . 47.

فليس ببعيد أنْ تكون هذه القصص ذات امتداد لتلك القصص القديمة مع تأثرها بأسلوب النثر الحديث؛ هذا فضلا عن أن أحداً لا يملك أن ينفي البعد القصصي والتشويق في تلك المقامات؛ مهْما أخلفت في لغتها وأسلوبها وموضوعاتها وتقنيتها عن القصة الحديثة"[1].

لكن كراتشكوفسكي يرى أن التطور الحقيقي للقصة كان ابتدأ بقصة (زينب)، في عام 1914 لـ محمد حسين هيكل، وموضوعها منقول عن الحياة الريفية في مصر وقد فتحت فتحاً جديداً، إذ " امتازت بأسلوبها الخالي من الصناعة والتكلف، لكنها رغم ذلك لم تلفت الأنظار في بدء ظهورها. ووضع طه حسين قصة دعاها (الأيام) في عام 1927، وسار فيها على أسلوب الأخبار العائلية، والقصة جديرة بالتقدير، لا من حيث الوصف الحي للحياة الواقعة فحسب، بل حيث اللغة والأسلوب.

وكان لظهور توفيق الحكيم في سماء الأدب أحسنَ وقع؛ لما امتاز به من التعمق في الفن الروائي، وبراعة الوضع، وسلاسة اللغة؛ وهذه الأمثلة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن القصة ستحل المحل اللائق بها في الأدب العربي الحديث.

أما حديثه عن الأقصوصة فيرى أن ما كُتب عنها في مصر كان قاصراً على طبقة من المبتدئين؛ إذ لم يفسح المجال لهذا النوع الجديد في مصر إلا ببطء كبير. ولقد حاول الجيل القديم أن يستعمل أسلوب المقامات في النقد الاجتماعي، كحديث عيسى بن هشام للمويلحي.

وهناك مؤلف معروف جرب حظه في الأقصوصة وهو المنفلوطي، وكانت أقصوصته تارة موضوعة، وتارة أخرى منقولة بتصرّف، لكن كتابته امتازت بجمال التنسيق وسلامة الأسلوب دون البراعة القصصية. وقد اخذ المستشرق هاميلتون

(1) في الأدب العربي الحديث، مجلة الرسالة، العدد 173 السنة 1935. 55.

كب آراء كراتشكوفسكي هذا وضمنها في سلسة بحوثه عن الأدب العربي الحديث ذاكر جل آراء الأول من غير إشارة إليه[1].

أما محمد تيمور (1892 – 1921) فيمكن عده منشئ الأقصوصة المصرية ومبتكر التصوير الواقعي للحياة الاجتماعية الحديث إذ وضع أقاصيص صغيرة مأخوذة من صميم الحياة المصرية، بأسلوب يحاكي أسلوب موباسان وتشيكوف.

وتقدمت الأقصوصة خطوات إلى الأمام في مؤلفات شقيقهِ محمود تيمور (المولود في سنة 1894). وأقاصيص محمود تيمور واقعية كأقاصيص شقيقه محمد، لكنها أكثر تنوعاً، وأعمق تحليلاً، وأفصح لغة، وأسهل أسلوباً.

" أما في العراق فكان من القصاصين محمود أحمد المولود في سنة 1901)، الذي ذاعت شهرته إلى ما وراء وطنه.

ولقد ظهرت الأقصوصة العربية في أمريكا (المهجر) في الوقت الذي ظهرت فيه في مصر، وربما قبل ذلك، ولنذكر أولاً عبد المسيح حداد الذي كتب أقاصيص فكاهة تكاد تكون صوراً سريعة للحياة العربية في أمريكا، وقد أخذ المؤلف كثيراً من روح أقصوصات جبران، وهناك ميخائيل نعيمه الذي خصص في أقصوصته النفسية مجالاً واسعاً لتحليل الروح تحليلاً عميقاً، متأثراً بالأدب الروسي في القرن التاسع عشر "[2].

والخلاصة فإن آراء كراتشكوفسكي هي على الحقيقة تتبع تاريخي لنشوء القصة وهي بمثابة توثيق لتطورها وروادها؛ لكنها مع ذلك لا تخلو من ملاحظات نقدية ذات طابع عام.

---

(1) أنظر: Studies in Contemporary Arabic Literature: II. ManfalŪTĪ and the "New Style. Bulletin of School of Oriental Studies, University of London, Vol. 5, No. 2. pp. 311

(2) في الأدب العربي الحديث، العدد 172، المصدر سابق.

**المسرحية:**

يقسم كرتشكوفسكي تطور المسرحية العربية الحديثة إلى مرحلتين. المرحلة الاولى ما قبل سنة 1920 والأخرى ما بعدها؛ وهو ليس تقسيما زمنيا بقدر ما هو فحص وتقييم للمنتج من تلك المسرحيات ومستوى أدائها ومنحاها وأسلوبها واصالتها. في كل من مصر وسوريا. حيث شاع فن التمثيل بين الطلبة بفضل الحفلات السنوية التي كانت تقيمها المدارس الأوربية.

" ففي سوريا، كتب إبراهيم الأحدب مسرحيتي (إسكندر المقدوني) و (ابن زيدون الأندلسي)، ووصل فن المسرحيات الهزلية الأخلاقية إلى نتائج جديرة بالثناء منذ أوائل عهد النهضة الأدبية، بفضل التأثير الأوربي، فقد زار الكاتب مارون نقاش (1817 – 1855) إيطاليا عدة مرات، واطلع على مؤلفات موليير ودرس المسرح الإيطالي. وما إن عاد إلى وطنه حتى شرع في كتابة ثلاث مسرحيات هزلية على أسلوب موليير، وفي اثنتين منهما صوَّر الحياة السورية الحالية. أما الثالثة فهي مقتبسة عن (ألف ليلة وليلة)، وقد نالت تلك المسرحيات بعض النجاح، لكن بعد وفاة المؤلف، لم يحاول أحد أن يسير على خطته.

ثم اتجهت الميول بعدئذ شيئاً فشيئاً إلى المأساة شبه الكلاسيكية، وكان أغلب أنصار هذه النزعة من رجال حلقة اليازجي والبستاني. ويعد نجيب حداد من أغزر المسرحيين في هذا العهد إنتاجاً، فقد ترك ست عشرة مسرحية، أغلبها منقول بتصرف عن مؤلفات فيكتور هيجو واسكندر دوماس وشكسبير. وكتب أيضاً بعض تراجيديات من وضعه، وقد نالت مسرحيات حداد إعجاب الجمهور إذ ظل يتذوقها ويفضلها على سائر المسرحيات العربية حتى نشوب الحرب العظمى.

وحاول الكاتب المصري محمد عثمان جلال (1829 – 1898) أن ينفث روحاً جديدة في المسرحية الهزلية الأخلاقية، وعزم على تنفيذ فكرة جريئة، هي نقل

مؤلفات موليير إلى اللهجة المصرية العامية مع مراعاة الأحوال الأخلاقية المصرية.

تلك هي أهم البواعث التي يعزى إليها قصور التأليف المسرحي العربي على النوع شبه الكلاسيكي.

أما بعد سنة 1920 فقد بدأ عهد جديد للأدب المسرحي في مصر بفضل جهود محمد تيمور الذي تحدثنا عنه في صدر هذا المقال.

كان الفن المسرحي موضع عنايته الخاصة، وطالما كتب عن المسائل الخاصة بنظريات الفن المسرحي وتاريخه، كما أنه وضع عدة منولوجات لإلقائها على المسرح، وقد ترك أربع روايات مسرحية: روايتين هزليتين. أما حوادثها فتجري في مصر الحديثة، عدا الأخيرة فهي مقتبسة عن مصر في عهد المماليك.

ومسرحيات تيمور في مقدمة المسرحيات المعبرة عن الحياة العصرية، وهذا من أقوى البواعث التي يعزى إليها نجاحها.

وفيما عدا هذه المسرحيات، فقد نجح ميخائيل نعيمه في المهجر، في وضع مسرحية هزلية أخلاقية، امتازت بما فيها من التحليلات النفسية الأخلاقية الرائعة؛ هي رواية (آباء وأبناء) – 1917 – ووقائعها مأخوذة عن الحياة السورية العصرية، وخصصت المقدمة لمسائل مبدئية، مما يدل على اهتمام المؤلف اهتماماً جدياً بالمشاكل التي يثيرها التأليف المسرحي، ولا ريب في أن هذه الجهود تعد فاتحة خير للفن المسرحي العربي.

وقبيل عام 1930 حاول الشاعر الكبير احمد شوقي بك أن يعيد إلى التراجيدية شبه الكلاسيكية رونقها وبهاءها، فخلف بعد وفاته عدداً من المسرحيات الشعرية المنقولة عن التاريخ المصري القديم أو تاريخ العرب "[1].

(1) م. ن.

ويتعرض كرتشكوفسكي للنقد الداخلي لتلك المسرحيات على مستوى اللغة والحوار تعرضا بسيطا تفرضه عليه طبيعة دراساته التاريخية.

وغالب نقوده تلك انصبت على محورين الأول علاقة لغة المسرحيات باللغة القديمة ومدى تطورها واقترابها أو ابتعدهما عن بعض. وثانيهما الفرق بين الفصحى والعامية في تحفيز الناتج الأدبي المتمثل بلغة المسرح. لكن كراتشكوفسكي يقر بفشل الكتابة العامية في الاستمرار والتألق حتى أن بعض روادها نبذها وعاد إلى الفصحى.

يقول كراتشكوفسكي: " إن مسألة لغة الحوار في التأليف المسرحي قد تبدو ذات أهمية أكثر منها في عالم القصة. ويُستدل من الاتجاه السائد آنذاك أن اللغة الفصحى احتفظت حتى الآن بقواعدها، لكن هناك محاولات لنشر العامية؛ وهي قضية جديرة بالاهتمام ومشبعة بروح متناقضة. ومما تجدر ملاحظته أن القصصي محمود تيمور، الذي كان يكثر من استعمال العامية في الطبعات الأولى من مؤلفاته، عاد يكتب بعدئذ بلغة أقرب إلى الفصحى، وذلك على الرغم من أنه – نظرياً – تنبأ بمستقبل العامية ودافع عنها[1].

**الصحافة:**

إن تاريخ تقدم الأدب العربي الحديث محاط ببعض الظروف الخاصة التي تضطرنا إلى الولوج في بعض أنواع قد تترك جانباً إذا أثير البحث حول ما اتفق على تسميته (الأدب). مثال ذلك الصحافة، فقد لعبت دوراً مهما، فكانت مدرسة لا للقراء فحسب، بل وللكتاب أنفسهم، وما نشره الكتاب من المقالات في الصحف ساعدهم على تحسين أسلوبهم شيئاً فشيئاً، وذلك ما اثر في كتابتهم عندما تناولوا الأنواع الأخرى. وأشد هذه الأنواع تأثراً: النثر الخطابي (السياسي وغيره). وإذا كان كرتشكوفسكي يرى بأن " القرن التاسع عشر لم ينتج شيئاً جديراً بالاهتمام، لكننا لا

(1) في الأدب العربي الحديث. العدد 173، مصدر سابق. 58.

نستطيع أن ننكر أثر البستاني ونشراته الدورية العديدة. وقد تخرج في تلك المدرسة عدد كبير من الصحفيين أمثال أديب اسحق، الخطيب ملتهب الحماسة، ونجيب حداد الذي اتجهت ميوله إلى الجدل الفلسفي"[1].

" وعلى أثر نشوب الثورة العرابية بدت كتابات عبد الله النديم (1844 – 1896) تعالج في صحف عدة المسائلَ الاجتماعية والسياسية بأسلوب لاذع وبلغة الكلام العادية.

أخذت مدرسة الشيخ محمد عبده تنمو وتقوى، ومن الذين تخرجوا في تلك المدرسة سعد زغلول (1859 – 1927) أشهر خطيب سياسي، ولم يكن له نظير في مستهل القرن العشرين سوى مصطفى كامل (1874 – 1908) مؤسس الحزب الوطني. أما الذين خلفوا الشيخ عبده مباشرة، فقد وقفوا جهودهم عند أبحاث إسلامية أمثال محمد رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي، وهو أكثرهم تشبعاً بالروح العصرية.

واستأنفت المدرسة الصحفية السورية تقاليدها في مصر، بفضل يعقوب صروف (1852 – 1925) صاحب المقتطف، وسليمان البستاني (1856 – 1925) الرحالة النابه، ومترجم الإلياذة، وقد كتب عن تركيا مؤلفاً جاء فيه بأحسن الأوصاف عن حالة العرب الاجتماعية قبل الحرب العظمى. وللأسلوب العلمي الفلسفي الذي امتاز به البستاني نقيضه فيما كتبه ولي الدين يكن (1873 – 1921) من مقالات ورسائل وقصائد"[2].

وامتاز مصطفى لطفي المنفلوطي – وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً – بما بذله من الجهود الموفقة لابتكار أسلوب جديد شائق، ويمكننا أن نقول إنه نجح عن جدارة واستحقاق.

---

(1) م. ن. 59.

(2) م. ن.

وأظهرت المدرسة السورية ميلاً خاصاً إلى الرسائل والشعر المنثور. ويعدُّ أمين الريحاني مبتكر هذين النوعين، وهو كاتب معروف، حائز حسن التقدير. وكان أول من رفع فن الرسائل والشعر المنثور إلى المكانة الأولى وضمن لهما شهرة ذائعة، وقد ظل مخلصاً لفنه، كما هو واضح في مؤلفاته الأخيرة. ومثله جبران خليل جبران[1].

هذا باختصار ما صوره كرتشكوفسكي عن أحوال تطور الصحافة العربية والتي أثرت في انبعاث الأدب الحديث وفي تطور أساليب اللغة الحديثة.

**المخطوطات:**

أمضى كراتشكوفسكي جلّ حياته الفكرية يعمل في حقل الدراسات العربية المختلفة. ولقد أغنى ثقافتَه وقدرته على البحث والاستقصاء خبرته الواسعة بالمخطوطات العربية.

حيث قام بترجمة "رسالة الملائكة" لأبي العلاء المعري، التي عثر على مخطوطها في القاهرة ونشرها عام 1932، كما نشر ديوان الوأواء الدمشقي متنًا وترجمة روسية، مع مقدمة في مئة صفحة. وله تحقيق مخطوط لديوان ذي الرمة بشرح الأصمعي. وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وكتاب البديع لابن المعتز.

وضع كراتشكوفسكي في مجال تحقيق المخطوطات عام 1949كتابه (المخطوطات العربية) الذي يُعد سيرة ذاتية له[2]؛ صور فيه معاناته ويومياته؛ وهو يبحث ويدقق ويستكشف المخطوطات في المكتبات، أو لدى شخصيات عربية ذكر عنهما تفاصيل في تضاعيف كتابه؛ كما كشف عن حبه العميق للمخطوط العربي

(1) م. ن.

(2) الموسوعة العربية، المجلد الثاني، مادة الاستشراق، ط ١، (دمشق، ٢٠٠٠)، ص ١٦٨– ١٦٦.

وكأنه روحا حيًّا يدب ويسعى، هذا فضلا عن وصف معاناته في اكتشافها والحصول عليها[1].

ونجد في الكتاب تحليلات مبثوثة هنا وهناك للشخصية العربية وطبيعتها النفسية آنذاك؛ حتى انه تحدث مرارا عن الحياة الشعبية، وعما لاحظه في الشارع وفي الأسواق؛ من عوام الناس[2]. وتجد في كتابه أيضا وصفا دقيقا للمكتبات والمساجد وبيوت العلم وكأنه رحالة أتى ليسجل ملاحظات وانطباعات عن كل من تقع عليه عيناه. وحديثه عن مكتبة الاسكندرية جزء من حديثه عن مدينة الاسكندرية ذاتها بـ طوبوغرافيتها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية[3].

ويصف في كتابه موقفه من هذا العلم؛ تلك التجربة التي كشفت عن جوانب مهمة لحال الثقافة العربية آنذاك؛ فضلا عن توصيف الأحوال الاجتماعية والسير المبثوثة هنا وهنا. فكان له في هذا المضمار جهودا عملية تكللت بنجاح باهر في تحقيق واكتشاف العديد من المخطوطات، فضلا عن الإشارة إلى أحوالها وأمكنة تواجدها في المكتبات العامة أو الشخصية.

وتحت إشرافه صدرت الطبعة الكاملة لـ ألف ليلة وليلة مترجمة إلى الروسية[4]. فكان له الفضل في اكتشاف مخطوط المنازل والديار لأسامة بن منقذ، ومخطوطة ديوان سلامة بن جندل، ومخطوط رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري؛ تلك الرسالة التي يقول عنها:

" الشيء الذي لم أستطع فهمه من أمر هذه الرسالة، السبب في أنها لا تذكر إلا نادرًا، فكانت نسخ مخطوطاتها الأخرى؛ مجهولة تمامًا، ويعزو كراتشكوفسكي ذلك

(1) المخطوطات العربية، المصدر سابق، 14.
(2) المصدر السابق، 47–49.
(3) المصدر السابق. 48.
(4) مقدمة مترجم المخطوطات العربية. كراتشكوفسكي. ترجمة: محمود منير مرسي. صـ 8.

إلى أنه" : لو كان عند العرب فهرس للكتب الممنوعة لاحتلت تلك الرسالة مكانًا مرموقًا"[1].

وهنا نتساءل هل كان كتاب كرتشكوفسكي (عن المخطوطات العربية)كتابا في السيرة الذاتية والعلمية ؟ الحق أنه كذلك بالفعل؛ لكنه من جانب آخر شديد الصلة بالتحري العلمي عن أحوال المخطوطات وعموم الثقافة العربية والإسلامية؛ فضلا عما يحويه من مداخلات وتعليقات عن أحوال الأدباء والكتاب والشخصيات الدينية والسياسية. ومن هذا الجانب يمكن أن يعد الكتاب وبجدارة بحثا في علم التاريخ الاجتماعي؛ وهو إلى جانب كل ذلك من كتب الرحلات؛ الذي انحسر إلى حد بعيد لولا كتابات قسم من المستشرقين والفنانين الرومانسيون، لكن رحلة كرتشكوفسكي إلى الشرق ذات بعد علمي وصرامة أكاديمية وتدقيق واضح وليست مجرد انطباعات عابرة.

فالرحلات تختلف باختلاف الأغراض، التي تستدعي القيام بها، غير أن هناك أغراضاً أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن التاسع الميلادي، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فناً أدبياً مميزاً، حدده الباحثون حديثاً، وصنَّفوه ضمن أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعاً له، لكن فريقاً آخر من الباحثين، يرون أن لهذا الفن قيمتين: الأولى علمية والأخرى أدبية؛ وهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية: "إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير"[2].

(1) المخطوطات العربية، المصدر سابق، 128.

(2) أدب الرحلة عند العرب، حسني محمود، ط2(بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1983)، 7.

فضلا عن كل ما مر فللكتاب ميزة احتوائه على كشفٍ للكثير من نشاطات المستشرقين الغربيين وتعليقاتهم وجهودهم التي لا يكاد غالب الباحثين يعرفون عنها إلا الشيء القليل[1].

ومن أهم ما في الكتاب الحديثُ المتناثر عن أحوال المكتبات وعن أسرار المخطوطات العربية؛ وعن فهرسات المكتبات المحلة والعالمية، هذا فضلا عن كلام مبثوث هنا وهناك عن أحوال وصفات المخطوطات المكتشفة، وعلاماته وخطوطها وطبيعتها وأماكن تواجدها وعن نسخها المكتشفة والمجهولة.

وصفوة القول فان هذا الكتاب يستحق وبجدارة قراءة فاحصة ومدققة وتفكيكا شاملا؛ ليس في مجال المخطوطات فحسب بل في مجال الاجتماع والسياسة والتاريخ الثقافي؛ فضلا عن كونه مصدرا في تاريخ الأدب العربي؛ حيث إن معلوماته في هذا المجال قلما تجد لها نظيرا في أي كتاب آخر تناول هذا الموضوع.

## *Russian Orientalist Kraczkowski's Efforts in History of Arabic Literature*

**Lect .Dr. Faris Aziz Al-Mudarris**

### *Abstract*

This research is an attempt to examine the efforts of the Russian orientalist Kraczkowski. Russian efforts in the field of

(1) المخطوطات العربية، 51.

orientalism have scientific and academic features that, generally, excel those of the Western orientalism due to their capacity, inclusiveness and political impartiality. Kraczkowski plays an important role in exploring Arabic and Islamic heritage. His efforts are still like a window of the Islamic East on the Western world and not only Russia. Besides his endevours in the history of Arabic literature, he had interests in the fields of manuscripts, biography, general travels and literary writing. He wrote many of the most significant researches in the Arabic literature history. He studied Arabic literature movement from the pre-Islamic era to modern times and specialized in modern literature as well. This research presents Kraczkowski's views, methodology and objectives, demonstrating the impartial and serious characteristics of his orientations.